



د. محمد معاذ الديوري الحسني

## أبو أيوب الأنصاري .. الداعية الأديب (عابر سبيل)

حياتهم لفوزهم يوم لقائه بجنته، ولا يتأتى هذا إلا بإخلاص العبادة لله تعالى واتباع منهجه (موافقة قصد المكلف قصد الشارع كما يقول الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى في موافقاته).

إن هذه العبارة الفريدة من فريد رحمه الله تعالى استوقفتني كثيرا، لأن هذه ملحمة (مقامة أدبية)، يتوسل فيها الأديب بالإسناد على غرار رواية الحديث والشعر، ويجعل الرواة الأبطال الحاكين للملحمة (القصة أو الخبر) رواة وهميين (علي بن هشام مثلا) لا مجال لهم في الوجود، لكن فريدا لا يتوسل برواية وهميين مثل الحريري وابن سهل والوجود نفسه، إذ المقام مقام "عابر سبيل" يذوق مرارة صعوبة الطريق أمام الفحشاء والمنكر وذلكم الفساد المنفشي، لذلك فهو "أسف بن حزين" يبحث عن شيخه في الطريق "أبي سهل"، وهذا سلوك عرفاني من أديبنا رحمه الله تعالى.

إن أحسن وصف وجده فقيدينا للفحشاء والمنكر وللفساد المنفشي في الأرض، هو وصف "الكلب" الذي وصفه إلهنا العظيم في كتابه المبين بقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحْمَلْهُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ وَإِنْ تَتْرَكَهُ يَلْهَثُ﴾ (الأعراف: 177)، ولا ينتج الكلب إلا عن كلب مثله، وهو المفسد والقائم على المنكر والناهي عن المعروف... وكل ذلك راجع إلى اتباع الهوى ومخالفة مقاصد الشارع، وهذا "كلب" ثالث يمكن أن يكون جَدًّا للكلب الأول الذي هو رمز الفساد:

هو الكلب وابن الكلب والكلب جده ولا خير في كلب تناسل عن كلب أي: لا خير في عمل يقوم على اتباع الهوى ومخالفة قصد الشارع، إذ هذا هو أساس الفساد، فلا خير فيهما.

وهذه براعة في التشبيه البديع في عبارات فريدينا رحمة الله تعالى عليه، لأن الكلب لا ينبغي للعابر أن يعبا بوجوده في الطريق إذا أراد الوصول إلى مبتغاه، لأنه لاهت سواء شد عليه حملة شعواء أو لم يعره اهتماما، فالأفضل له تركه تماما، والنهوض بالدعوة إلى الله تعالى على بصيرة، والبناء التربوي الصالح، فالقافلة تسير، والكلاب تنبح، ومخالفة مقاصد الشارع هي أساس المفسدين فلا مجال للاشتغال بها، وإنما الحاجة ملحمة في الإصلاح، ومن هذه الإصلاح الذي قام به عابر السبيل تركه لنا بذرتين من بذور الإصلاح التنموي الشامل: "قناديل الصلاة" و"مجالس القرآن".

رحمك الله يا عابر السبيل، وأسكنك فسيح جنته، وجعلك في مقام الشهداء، ورفع منزلتك في الملأ الأعلى مع السعداء، وجعلك في مستقر رحمته، مع الذين أنعم عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

1- جزء من حديث جبريل الشهير الذي رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ورواه الإمام مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.  
2- هذه المرحلة كنا نتمنى أن تكون مرحلة وسطى في حياة الفقيه، لكن القدر الإلهي حال دون ذلك لأسباب لا يعلمها إلا عالم الغيب والشهادة مقدر الليل والنهار الخبير بجميع الأمور ومقاصدها.

الرائقة التي كان يختارها الفقيه اختيارا، وينتقيها انتقاء، حتى يوصلها إلى القارئ بيضاء نقية لا شبة فيها.

وفي حقيقة الأمر، لم يكن اختيار فريد للعبارات وانتقاؤه إياها موفقا إلا بنور اتباعه للمنهج الذي يحاول إيصاله إلى نفوس القارئ، وذلك لأن إشعاعه الإيمان كان قويا، لأنه كان فريدا حقا، كان قرانيا بحق، كان نبويا بحق، فكان اختياره للعبارات الأدبية الرائقة موفقا لاتباعها من قلب موفق.

وأشير بالمناسبة إلى أن فكرتي "قناديل الصلاة"، و"مجالس القرآن" اللتين تركهما الفقيه رحمه الله تعالى لحاملي لواء الدعوة إلى مجد هذا الدين الفريد الذي فطر الله تعالى الناس عليه، لا شك أنهما ليستا وليدتي المرحلة المتأخرة من حياته(2)، بل كانتا حاضرتين في روائع "عابر سبيل"، إذ الصلاة والقرآن هما الدواء الناجع الذي يصفه الرجل في هذا الركن للمريض (الحائر في طريقه العابر للسبيل).

إن أديبنا رحمه الله تعالى كان دائما حاضرا في النص، فلقد كان هو أيضا هو

تعالى به عليه وعلينا وعلى جميع أمة سيدنا محمد ﷺ) والأليم كله (اعاذه الله تعالى وإيانا وجميع أمة سيدنا محمد ﷺ من رؤيته) وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفيها سقر، لا تبقي ولا تذر، لواحة للبشر، عليها تسعة عشر، فما على العبد (عابر السبيل) إلا أن يستعد للقاء الله تعالى بالعمل بكل ما يقرب إلى النعيم، ويبعد عن الأليم، وكانني بفريد يقول لهذا الإنسان:

يا عابر السبيل مُرْ على هذه الإشراقات التي تنير طريقك، واستمسك بما فيها لتصل إلى بر النجاة، فإنك لن تجد إلا جنة أبدا أو نارا أبدا.

يا عابر السبيل إذا قرأت مقالتي في هذا الركن فلا تضرب عنها الذكر صفحا وتجعلها وراءك ظهريا، وإنما نق حلوة ما فيها بما يوصلك إلى حلوة الإيمان التي أساسها أن يكون الله تعالى ورسوله ﷺ أحب إليك مما سواهما، ولا تتحقق محبتكما الصادقة لديك -يا حبيبي القارئ- إلا باتباعهما فعلا والائتمار التام بأوامرهما والاجتناب

إن أحسن وصف وجده فقيدينا للفحشاء والمنكر

وللفساد المنفشي في الأرض، هو وصف "الكلب" الذي وصفه إلهنا

العظيم في كتابه المبين بقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحْمَلْهُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ وَإِنْ تَتْرَكَهُ

يَلْهَثُ﴾ (الأعراف: 177)، ولا ينتج الكلب إلا عن كلب مثله. وهو المفسد والقائم على

المنكر والناهي عن المعروف... وكل ذلك راجع إلى اتباع الهوى ومخالفة مقاصد الشارع.

وهذا "كلب" ثالث يمكن أن يكون جَدًّا للكلب الأول الذي هو رمز الفساد:

"هو الكلب وابن الكلب والكلب جده ولا خير في كلب تناسل عن كلب"

أي: لا خير في عمل يقوم على اتباع الهوى ومخالفة قصد الشارع.

إذ هذا هو أساس الفساد، فلا خير فيهما

ذلك العابر الذي يحس بالغبية في طريقه، في كل مكان يصل إليه ولا يجد فيها المأوى الحق، وهو يبحث عن المقام المريح، وكانت دموعه تسري تترا في هذه الإشراقات، لا سيما إذا لجأ إلى الحديث عما يقابل هذه الحقيقة العرفانية، وذلك في وجه المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

"حدثني أسف بن حزين، قال: حدثني أبو سهل... لما قرأت هذه المقدمة الإسنادية في ملحمة فريد في "عابر سبيل" في بداية تسعينات القرن الماضي بدأت أرتجف وأبكي، لأنني وصلت إلى ما وصل إليه فريد (الذي سافر إلى الله تعالى وتركنا في هذه الأرض الملائى بالفساد والمفسدين والعدوان والمعتدين)، فالعابر "أسف" و"حزين" مما آلت إليه أمر الأمة من فساد في أخلاق أبنائها وأمور دينهم، وهو يبحث عن الطريق المنجية التي توصلنا إلى "أبي سهل" الذي هو طريق الجنة، طريق الله رب العالمين، إذ المقصد من رب العباد تسهيل أمور

التام لزواجهما ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله﴾، ومن شروط المحبة الصادقة طاعة المحبوب:

تعصي الإله وأنت تظهر حب

يا عابر السبيل، إنك في عبورك للطريق لا تحمل إلا زادا وحيدا تصل به إلى مقامك وقرارك، فأجعله كله نافعا لك في المقام الذي تود الركون إليه أخرا، والقرار الذي ستصله عابرا، فالبدر البدار إلى الخير والصالح والبر والرشد.....

إن هذه الرسالة لم يكن يعبر عنها فقيدينا رحمه الله تعالى في إشراقات الأدبية في ركن "عابر سبيل" صراحة، ولكنها كانت تصل قلوب قرائه الذين يحبون الرجل محبة صادقة (وذلك من أسس بلوغ العبد حلوة الإيمان: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله)، حيث تصل هذه الرسالة بكل ما تحمله من إشارات ومعارف تتكشف من سجع العبارات

ودعنا هذه الأيام أحد كبار الدعاة بمغربنا الحبيب، الفتى الفذ الذي جمع بين العلم والأدب، والعمل والدعوة، وحب الآخرة والقرب من الله تعالى، إنه أبو أيوب الأنصاري الذي لبي نداء ربه ليلة الجمعة 18 ذي القعدة الحرام 1430هـ الموافق 06 تشرين الثاني 2009م. ولقد كان رحمه الله تعالى من أعذب أديب هذا الزمان، حيث إنه استطاع أن يجمع في أدبه بين العلم والعمل والورع والتقوى على شاكلة من وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ (الشعراء: 226)، وقد استطاع بحمد الله تعالى - أن يجمع هذه الأوصاف الثلاثة كاملة، حيث إن أدبه كان مليئا بالتربية الإيمانية التي تعتمد على الإخلاص لله تعالى ظاهرا وباطنا.

ولقد كان أديبنا رحمه الله تعالى من الشعراء المفلحين الذين أبدعوا في الشعر وكان ممن يتصفون بالملكة الشعرية، حيث لا تجد شعره في المحافل إلا حاضرا، ولا تجده في المجمع للقصيد إلا ذاكرا.

وكان شعره إيمانيا قرانيا مقاصديا، كما كان نثره الأدبي، سواء في المقامة، أو في القصة، أو في الرواية، وكان مقصده الأساس في مختلف هذه الأشكال الأدبية هو دعم روح التربية الإيمانية في نفسية المتلقي (القارئ) وربطه بالله تعالى في كل خطواته (عبادة وسلوكا ومعاملة).

أذكر أنني كنت من هواة قراءة إحدى الجرائد التربوية الغراء في أيامها الخوالي، وكان أهم ما يجذبني إلى اقتنائها هو الصفحة الأخيرة منها، تلك الصفحة الربانية التي تحمل روائع الأدب في شكلها الإسلامي البديل في "عابر سبيل" الذي كان من إبداع فقيدينا رحمه الله تعالى، ومما لفت نظري هو حسن اختيار العنوان: "عابر سبيل" الذي يحمل في الوقت نفسه معنيين:

الأول: اعتبار القارئ عابرا للسبيل بمروره على قراءة الصفحة، حيث عليه أن يحمل منها الزاد الأهم، وهو نفس مبدعها الروحاني الذي يقرب من جناب الله تعالى ومحبة سيد الوجود ﷺ، كما تمنح عابر سبيلها تذكيرا بالسلوك العرفاني الذي يجب على كل مسلم مؤمن أن يتلمسه للوصول إلى مرتبة الإحسان الإلهي: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(1).

الثاني: التلميح إلى أن الإنسان عابر سبيل في هذه الحياة كلها، وهو الإحساس الذي كان عميقا في فقيدينا (رضي الله تعالى عنه وأرضاه، ونور ضريحه إلى يوم لقاءه، وجعل جنة الخلد مأواه) منذ معرفته الله تعالى من صباه إلى مرمسه، وهذا العبور كان يعني في قلب فريد وفي قلوب قرائه أن الإنسان لما كان من صفته أنه راحل عن هذه الدار إلى دار أخرى فيها النعيم كله (أنعم الله